آثار الإستكانة لدى العلماء وأرباب الإبانة

تأليف

د. حمزة بن فايع الفتحي

عضو هيئة التدريس بجامعة الملك خالد بأبها
وإمام وخطيب جامع الملك فهد بمحايل عسير

الطبعة الأولى
1429هـ/2008م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، رافع العلماء، وناصر الفقهاء، الذين بهم تعز الشريعة ، وتصان الملة الرفيعة، وتوهن الطرق الوضيعة، وصلى الله وسلم على من بالعلم اتصف، وبأفضاله اعترف، وبآثاره تفاعل وانشغف، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد ...

فإن للعلم دوره البارز، وللفقة مكانته الراسخة في الذب عن الشريعة وصونها، وحمايتها، وتثبيت قواعدها وأركانها، ودعوة الناس إليها في هذا العالم المائج بالثقافات، والمتلاطم بالأفكار والمعلومات.

ولكنَّ هذا الدور إنما يصدق ويتحقق في قيام العلماء بحق العلم، وسعي الأعلام مسعاهم الصحيح، الذي يتجلى فيه شموخ العلم، وتعلو رايته، وترفرف منائره، حاكيةً سمو هذه الشريعة، وجمال تعاليمها، وأحقية شعائرها. " وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً " [النساء:82].

وإن المتأمل في الحياة المعاصره ليتألم من الواقع الإسلامي الأسيف، وأوضاعه المتردية على كافة الصُعد، وفي سائر المجالات، **ولا يمكن لواعٍ أن يتجاهل الأمانة المنوطة بأهل العلم**، وما حملهم الله من مسئوليات وتبعات، تجري مجرى الفرائض للأمة، والحقوق المؤكدات ، التي لا تقبل مناورة ولا تنازلاً. قال تعالى : " **وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ** " [البقرة:187] ، وقال جل وعز : " **لَوْلا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ** " [النساء:63].

حتى ليوقن العامي أن من أسباب التردي والانحطاط، هو **غياب العلماء عن الساحة**، وخفاء الفقهاء العاملين، والقراء الصادقين، الذين هم زينة الحياة، وطعومة العيش، وملح البلاد والأقطار.

وحيث أن البلاء يستعر، والنكد يتفاقم، والفرج يطول، كان لابد من تحرك للعمل، وإنقاذ للمعالجة ودعوة للإحياء، لا سيما وأن الحياة قد تغيرت والظروف قد تباينت، والأمة قد حوصرت! وحملات التشويه والتدمير والتكدير تتزايد يوماً إثر يوم، وفي

خلال العقود الأخيرة بانت الهزيمة المتلونة لأمتنا في مجالات كثيرة، وكان من أسبابها جنوح علماء عن الواقع، وتخليهم عن مراكزهم لسبب وآخر ليس هذا موضع نقاشها.

لكن الأنكى والأطغى تدافع الكثيرين للسكوت، وعزوفهم على وتر الاستكانة والهدوء، حتى بلغ الحزام الطبيين، مما أدى **إلى هوان شخصية العالم، واحتقاره**، وتعمد إهدار مكانته، وتغييبه حتى في المجالات الشرعية والفكرية، فيسود الجاهل، ويقدم الأخرق، ويمكن المرتزقة، فمن تأكل بالشريعة واسترزاق بالسنة، إلى تزلف بالطلب والتعلم والتأليف. والله المستعان...

فلم يعد الأسف ينجينا من غيبة أهل العلم عن دورهم الأممي، بل تجاوز ليبلغ فقدان العالم لمكانته، ومحاولة إسقاطه في ظلمات الهامشية والضبابية والتلفية .

فلم يعد له دور يُذكر، ولا مكانة يُرتجى لها! ولا ريب أن ذلك مقصد للأعداء وهدف للأذناب، يجري في مخطط التبعية للغرب الكافر، وتنفيذ لرغباتهم القائمة على حرمان العالم الأسلامي من حقوقه، وتبديد طاقاته، ووأد مواهبه وقدراته. كما قال القائل واصفاً ذلك بجلاء:

القاتلون نبوغ الشعب ترضيةً — للمعتدين وما أجدتهم القُرَبُ

ومن القتل الشديد، والتدمير الأكيد في هذا السياق قتل أدوار العلماء، وقمع تحركات الفقهاء المؤثرين، الذين بتحركهم وجهودهم ومواعظهم، نهضة الأمة ويقظتها، وعودتها إلى دينها.

ومن المؤسف أن يُفرض لعالم دور إصلاحي وتربوي معزول عن نفع الناس وإحيائهم ، بل يأتي أقل شأناً من دور الصحافي، والأكاديمي، وعاقد الأنكحة، الذين لهم مجال معين لا يلتفتون لسواه!!

أما كُتَّاب الصحافة فمع تردي كثيرين منهم في مجال الفكر والشريعة، يُفتح لهم من منافذ التأثير ما لا يفتح للعالم ، ويُسمح لبعضهم بتعاطي الفتوى والتنظير الشرعي.

وليس ذلك بعجيب في زمان الأعجوبات والأضحوكات، لأن مما حدثنا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن يصبح **الجهلة رؤوساً** في حقبة زمنية معينة ولكن الأعجب أن ذلك تم في حضرة العلماء ووجودهم وكثرتهم أحياناً!!

بينما النص النبوي البهيج، يتحدث عن أولئك في زمن قبض العلماء واندراس آثارهم حيث يكثر الفساد، ويعم الشر، ويشتعل الجهلة والجهلاء، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وكنوع من المعالجة الصحيحة لهذه الوضعية السيئة، ومحاولة ردّ اعتبار العلماء، وإبراز مقاماتهم، وتحذير منهزميهم، ومتهاونيهم، أسعفني القلم بهذه الخواطر السريعة، والوقفات المتوالية، التي أسطرها من خلال تأمل لواقع، أحزننا شكله، وآلمنا وضعه، وساءنا شرقه وغربه، والله المستعان.

فأحببت أن أجلي، ما لهذا الموضوع من خطورة على الإسلام، وضياع لشريعته، وإهدار لأمناء الشريعة، وحماة الدين، عندما يتقاعس حملة القرآن، وينشغل ساسة الشريعة، وعباقرة الفقه بما هو أقل من واجبهم، أو دنياهم، أو ينجروا لما هو عزلة دامسة لهم، لا تُصلح واقعاً، ولا تنهض بدين ولا دنيا!!

فجاءت هذه الرسالة الصغيرة وهي: (آثار الاستكانة لدى العلماء وأرباب الإبانة).

لأن العلماء لسان الشريعة، والموقعون عن الله وهم جمالها الجذاب، وسموها الشامخ، وسماحتها الباهرة، وقد قلدهم الله هذه المكانة، ليعز بهم دينه، وينشر شريعته، ويجعله مهيمناً على سائر شئون الحياة، وليهزم بهم خصومها وأعداءها فكرياً وحضارياً وعسكرياً. فأين من يتعظ بمثل ذلك، ويدرك دوره الحق، وواجبه المتأكد؟!

قال تعالى : " **يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ** " [المجادلة:11].

ومن لم يقم بدوره الشرعي، وواجبه العلمي، لن تحفل به الدرجات العلى، ولن يصيب المرتقى المنيف، أو يُناهز المنازل السامية. **" جَزَاءً وِفَاقاً** " [النبأ:26]. وقال تعالى في المؤمنين الصادقين : " **وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً** " [الأحزاب:**23].**

وإنَّ من عوامل نجاح العالم، ونقاء دوره وصموده، أن لايبدل منهجه او يتلاعب بشرع ربه ، أو يتأول تنازلاته ومراجعاته، ليسوغ هزيمته، أو ارتخاءه أو هروبه وخيبته...

ولكل دوره وعمله المرصود، حسب علمه المتعمق، وروحه المتوقدة، وهمه الأوسع، وتأثيره البليغ، " **قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ** " [البقرة:60].

وهو ما سنكشفه في مضامين رسالتنا هذه، التي أرجو أن تضيف شيئاً في المكتبة الإسلامية، وتعالج خللاً في الفكر الإسلامي، وتصلح من وضعية أهل العلم، وما ينبغى منهم تجاه دينهم وأمتهم، إذ ليس العلم مجرد درس أسبوعي، أو مؤلف سنوي، أو فتوى سديدة بل ذلك كله، وينضم إليه إصلاح حقيقي، وتربية جادة ، وتجمع شمولي إخائي، وأمر بمعروف ونهي عن منكر، وغيرة على شعائر الله، وسعي للبناء والتأسيس، وانفصال العالم الشرعي، والفقيه المعتمد، عن قضايا أمته ومآسيها ، من أقبح ما يتصف به العالم ، ويُزجر على ذلك ما لم يقدم عذره المبيح، أو ظرفه المجيز، والله بكل شئ محيط.

وقد حرصت بعد التأمل والنظر، ورصد تقلبات الأمة وتحولاتها أن أجمع الآثار الناتجة والعواقب السيئة، لغيبة أهل العلم عن ساحتهم وتخلفهم عن أسواقهم ، وركضهم إلى مالا يحسن أو يليق بهم، وإنها لسُبة الدهر.ولعنة الحياة ، أن يكون أهل العلم عاملاً مبينا في تخلف الأمة، وهوانها، واستضعافها.

والله المسئول أن يحفظ لهذا الدين جوهره، ويحمي أهله، وينصر علماءه ودعاته، الذين يبلغون شرعه ولا يخافون في الله لومة لائم .

محايل عسير
الخميس 26 رمضان 1427هـ
19 أكتوبر 2006م

تمهيد

ليعلم الجميع أن مثل هذا النقد الموضوعي لمسالك علمائنا الأجلة، ليس معناه التقليل من شأنهم أوهضم مكانتهم! بل هو النصح لله ورسوله، والنصح لأئمة المسلمين وقادتهم ، ومن يؤمل منهم حسن العمل، والتأثير الجاد، والنهوض الشامل والتعبئة الإيمانية والفكرية... وليس لعمري هو من النقد الآثم، أو التهجم الظالم، الذي قد يعترض به الجهلة، ومن مارسوا عملياً، مسخ دور العلماء، وتشويه شعائر الإسلام، وعزلها عن نبض المسلمين ومشاعرهم وهمومهم. زاعمين بأنهم أرباب المنهج الحق، أو أوصياء الإسلام الصافي. وقد كشفتهم الأحداث وجلّتهم الوقائع، وأبانت بحق من هم حاملو الأمانة ، وشرفاء الإبانة، الذين لم تتلاعب بهم الأهواء، أو تتقاذفهم الشهوات لتمحو دورهم، أو تتلف نشاطاتهم، فيغدون، وقد أفلَ نجمهم وانخسف قمرهم، وزعزعت هيبتهم .. وما تم تقييده هنا، إنما جاء لإعادتهم إلى مكانهم الصحيح، ومنزلتهم السامية، عبر علمهم المتدفق، ومشاركتهم الفاعلة، ونصيحتهم الصادعة، ولن تخلو الأرض من قائم لله بحجة، ينفي عن دين الله تحريف الغالين، وتأويل الجاهلين، وانتحال المبطلين، وسيبلغ الباذلون، ما وعدهم ربهم حقاً، " **وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ** " [الشعراء:227]، جزاء تبديد علمهم، أو إهانة فقههم، واختزاله إلى أدوار مستكينة ، ومواقف فارغة لا تجسد عظمة الشريعة ، ولا منزلة العالم والعقيدة التي تشخص لها الأبصار، ويجلها الأعداء قبل الأصدقاء.

[1] اندراس الشريعة:

إن أول أثر لاستكانة أهل العلم وضعفهم، وهو الأثر الأخطر والناتج الأمر، أن يحصل للشريعة اندراس في أحكامها وشعائرها، فلا تجد من أبنائها من يبلغها، ويدفع عنها، ويفتخر بها، وإذا تحدث عنها تحدث بالروح المفعمة بالشموخ والاعتزاز.

ومن معالم اندارس الشريعة بسبب تقصير أهل العلم :

1 - **ضعف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:** حيث لا يؤدي العالم زكاة علمه، وخيريته التي قال الله فيها " **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ** " [آل عمران: 110]، ولا يستحضر انضمامة لأولي البقية الغيورة، التي تتألم لشعائر الإسلام ، وتضج من الفساد المتضاعف. قال تعالى : "**فَلَوْلا كَانَ مِنْ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنْ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ**" [هود116]

فحين يبلغ العالم الشرعي، والفقيه المتميز، بمنكر صريح، يعتذر عن الإنكار ولو بالمراسلة الباردة! فها هم كثير الآن – يشاهدون تجاوز بعض وسائل الإعلام وسخريتها من قضايا الشريعة، ولا يحرك أكثرهم ساكنا، ونرى تطاول الأعداء وتكالبهم على الأمة وأراضيها وثرواتها، فلا تجد العالم المبين، ولا الشيخ المشفق الذي لا يرضى بالدون والدنية، ويقوم بدورالتحذير، والتعبئه للأمة، حيث انفرط الشر، وتقلل الخير، والله المستعان.

2 - **فشو الجهل**: حيث فرط العلماء في القيام بدورسهم المركزة وتوجيهاتهم الرصينة، التي من ثمراتها قيام الشريعة، وبروز التلاميذ، ونشاط المكتبات وإصلاح الأحوال والسلوكيات.

ولكن المشكلة ركون العالم إلى دنياه، واهتمامه بشأنه الوظيفي، وتقصيره حتى في البلاغ الشرعي، والإصلاح الديني، الذي يشع المحاضرات ودروس الفقه والتبصير، وفك المتون العلمية والإشراف على حلقات التحفيظ والترسيخ، التي تخرج رجال المستقبل، وأساتذة المرحلة، وهم من يؤدون المهام، ويحملون المسئوليات التي بحملها صون الشريعة، وحفظ أركانها ودعائمها.

جـ- **غربة الدين**: وهذا ناتج حتمي لاندراس الشريعة وخفاء تعاليمها الذي سببه تغافل أهل العلم وعزلتهم المشينة، حيث يقل الأخيار وتندثر السنة، وتكثر البدع، وتتعاظم الشرور والمخالفات، ويغدو الحق غريباً بين أهله ودياره، حيث تطفح الحياة بموروثات الآخرين من أعداء الإسلام والملة، فيفخمهما الأشرار، ويروجها الأذناب، ويحصل ما أخبر به صلى الله عليه وسلم (**بدأ الإسلام غريبا، وسيعود غريبا كما بدأ، فطوبى للغرباء**).

وإن عودة غربة الدين، وانحسار شرائعه ستمر بمراحل من التغيرات المريرة، والانحدارات القاسية التي تشيب لها مفارق المؤمن العامل، والعالم الناصح، جنبنا الله مشاهدها، وأعاننا على دفع الغربة بالدعوة الجادة، والإصلاح المنير والاجتماع الحقيقي والصادق.

[2] ضعف اليقين:

واليقين هو لب الإيمان وخلاصته وأرقى ما فيه، وهو الذي يدفع بالنفوس للتضحيات، واقتحام الأهوال، ومقارعة الظلمة، وقول الحق على أي وجه كان، على نحو ما قال تعالى: **" الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللَّهَ"** [الأحزاب 38]. وكقول سحرة فرعون بعد إيمانهم الكبير **" فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (72) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى " [طه:72-73]** .

وهو حافز الأرواح للجنات، وتكثير الحسنات، حيث يثبت العقائد، ويوطد المبادئ، وتهون أمامه كل الشبه والتضليلات والتخرصات، وإنما يضعف بضعف العالم الذي ارتخى، واختار درب السلامة بزعمه، والحكمة المفرغة من محتواها الشرعي، وإنما السلامة في قول الحق، ونفع الناس، ونصح الأمة، وأداء زكاة العلم، وأن تقول الحق ولو كان مراً، حسب الأحوال والمعطيات، وإذا ما قصرنا اعترفنا بضعفنا وتقصيرنا، وأعذرنا إلى الله، كما قال موسى عليه السلام في قوله تعالى: **"قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ"** [المائدة 25]

وقد يظن هذا العالم أنه بإيمانه وسكونه، يجنبّ نفسه الفتن والبليات! كلا، بل إنه ليضعف دوره، يوهن نفسه، حيث يستطيب هذا المسلك، ويترك المجال للجهلة والمرتزقة.

[3] تسلط الظالم:

حيث تخلو المساجد من الناصحين، والباذلين، والصادقين، فيصبح الظلمة لا يحسبون للعلم حسابه، ولا لآياته مكانا ولا قيمة، لأنهم انخنسوا وسفلوا بدورهم المشئوم على الأمة المباركة.
فينتج عن ذلك اتساع رُقعة الظلم، وكثرة المخالفات، وتسويغ الانحرافات، والتضييق على الدعاة والمصلحين، حتى ينقطع دابرهم، ويُفل حديدهم والله المستعان.
وينعكس هذا المناخ على الحياة الإسلامية ويتسع حتى يتفاقم البلاء، وتتنزل المحنة.
قال تعالى: " **وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً** " [الأنفال 25]
لابد للأمة من عالم واعظ، وآخر شارح وآخر ناصح، وذلك مذكر وزاخر، قال صلى الله عليه وسلم: **(سيد الشهداء حمزة، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله).**

وفي ظل الضعف المتنامي في النخبة الإسلامية من العلماء والقادة والشرعيين والمفكرين بالإمكان التغيير بوسائل أخرى جماعية، عبر مؤسسات دعوية، تحفظ للعلماء مكانتهم، وتعزز هيبتهم حتى لا تتسلط عليهم الظلمة، لأن بعض مرتزقة الفكر **سينقد** حديث **(سيد الشهداء)** وأنه يعز تحقيقه وتطبيقه في عالم مدلهم بالظلمة والذلة. ، فإذا صار نكير العلماء، وتعليقيهم الشرعي عبر مؤسسة تضم الخيرة والكملة عزت الكلمة، وقويت الشريعة، وأقام لهم الجائر والمعنف دولةً في قلبه قبل دولتهم المكانية.

كما قد قال المنصور الفاطمي في القاضي الصالح، قاضي القيروان محمد بن أبي المنظور الأنصاري، رحمه الله، عندما رفض إطلاق أمرأة فاسقة من السجن، ورد طلب جارية السلطان وقال للمرسولة (يا منتنة، لولا شيء لضربتك، لعنك الله ولعن من أرسلك، فولولت، وشقت ثيابها، ثم ذكرت أمرها للمنصور، فقال: ما أصنع به، ما أخذ منا صلة، ولا نقدر **على** عزله، نحن نحب إصلاح البلد) (**السير15/157).** وفي قوله (ما أخذ من صلة) درس لأهل العلم أن يستقلوا عن الآخرين، وأن تباعدهم عن الصلات والمعونات والمكافآت، مما يقوي جانبهم، ويخيف عدوهم المتربص بهم، والله من وراء القصد.

[4] سمو أهل الدنيا:

والمراد بهم المتنفذون والموسرون والبطرون، والضائقون بالإسلام وأهله، ونوره وزهرته، حيث يفضلون الاستمتاع الدائم

بالحياة، واللذائذ المتوالية من غير ناقد أومنغص أو معلّق، وهم جزء من (الملأ) المذكورين في القرآن، حيث يحرضون على أهل الخير والناصحين، ويرفضون التسليم للأوامر الشرعية، لأنها تزلزل متعهم، وتزيل شهواتهم، وذلك شيء عزيز عليهم " **نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ**" [الحشر 19] والله المستعان.

فعندما يختبيء أهل العلم، ويقل حجمهم، ويسمو هؤلاء، ويخلو الجو لهم، فينشرون غيهم فسادهم، ولا يجدون من يرد عليهم أو ينصح لهم ، ويسوقون العامة إلى لهوهم ومناكرهم كما هو حاصل في أماكن كثيرة.

ومن سمات هؤلاء أنهم مترفون، والمترف لا يرضى بالغنى المعتدل، بل يبطر ويتجاوز، ويعتدي ويظلم، ويرفض الرجوع والانقباض.

قال تعالى: " **إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ (45) وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ**" [الواقعة 45 ، 46].

[5] استئثار الباطل:

الباطل في اللغة ضد الحق، وهو يشمل كل الزور والمخالفات المناوئة للحياة الإسلامية، والباطل إنما ينشره أقطابه من الأمراء الظلمة، والأغنياء الفارهين، وبعض حملة العلم المرتزقة، حيث يتأكلون بهم، ولا يضيرهم ما يحصل وما يكون!!

وانتشار الباطل، يعني انطماس الحق، ومحدودية وجوده، وغربة أهله، وكثرة الفتن والفساد وهو ما نراه في كثير من البيئات الإسلامية اسما، وليس منهجاً ونظاماً والتزاماً. !!

قال تعالى: " **ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**" [الروم 41].

وإنما ينتشر الباطل بخفاء سمة الأمر والنهي، التي هي من واجبات العالم ومن أمانة العلم والدعوة، التي يطالب بها كل حملة العلم الشرعي.

لأنهم يفترض فيهم حراسة الشريعة، وحماية السفينة من الغرق. وسكوتهم نوع من الإقرار للباطل، وإيذان بتمدد الفساد الذي تصطلي نياره ببيارق أهله المجرمين والمنافقين، الذي

هواهم انطماس الحق، وإضعاف الشريعة، لتحلو لهم الحياة باشكالها المشينة، ومزاهرها المحرمة التي يؤزهم الشيطان إليها، ويزين لهم ممارستها بدعوى الحرية، والاستمتاع بالحياة، والتحرر من الأغلال والالتزامات وهو من مقاصد الاستعمار الغربي المضروب على البلاد الإسلامية هذه الأيام.

قال تعالى: " **إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ** " [الواقعة 45]

وقال : " **بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنْ السَّبِيلِ**" [الرعد33]

وقال تعالى: " **وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ** " [محمد12].

[6] ظهور المتاجرين بالدين:

وهؤلاء أصناف لا كثرهم الله وهم:

1- **المنسلخون**: اتباع بلعام بن باعوراء، من قال الله فيه " **آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا" [الأعراف 175]** وهؤلاء لهم مناصب شرعية، وحصلوا على شهادات معتمدة، ولكن استخف بعقولهم، وسلبت قلوبهم، لما لمعت أمامهم جواهر الأموال، ودنانير العقارات، فانسلخوا من دينهم ومعلوماتهم، ليجيّروا ألسنتهم للدجل و المين والتزييف، وأتى الإسلام من قبلهم!!
   وربما خدعوا العامة بحسن مظهرهم، وتلميع شيء من السنة إلى ما ولجت قلوبهم، ولا زكت نفوسهم.
2- **عليمو اللسان**: وهم من تشبعت ألسنتهم بحلو الكلام والنطق، ولم يخالط قلوبهم حلاوة العلم، ولا نوره وسناه، فأصبحوا نواطق محرفة، وملاسن فارغة، ديدنها الغش والمخادعة والتلبيس.

قال تعالى: " **وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ" [البقرة42]**، وفي حديث صحيح قال صلى الله عليه وسلم **(إن أخوف ما أخاف على أمتي منافق عليم اللسان)**

وهؤلاء يروجون في وسائل الإعلام، لا سيما الفضائيات ذوات المقاصد السيئة والأهدف المنحطة.

3-الجهلة : الذين رفعهم تزلفهم الحقير، أو جاههم الوسيع أو مالهم الوفير، فباتوا يتاجرون بالدين، وأنهم من أفهم الناس للشريعة، وسماحتها، ولماذا الضنك والتضييق، وديننا عالمي!! ورسالته سهلة !! والمال والجاه يغذي ذلك لهم، ويصنع منهم دعاة خير وإصلاح وفي الحديث الصحيح **(حتى إذا لم يُبق عالماً، اتخذ الناس رؤوسا جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا).**

4-**أنصاف المثقفين:** ممن قرأ قراءة عامة في الثقافة الشرعية، وبات يفتي ويقرر، وينظر، ويجرح، ويعدِّل، ليكسب بذلك شهرة ذائعة، ويجني ثمناً قليلا، وأتاحت له الظروف وصولاً إعلامياً، يبث من خلاله سمومه وترهاته ومجازافاته، التي غالباً ما تحدث تلبيساً للوهلة الأولى، لكنها بحمد الله لاتطول وتصمد، بل تسقط مع حركة الزمن وبعثرة الفكر، فينكشف المبطل، ويبين الصحيح للخلق، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهلم، وكم رأينا من تساقط هؤلاء وتهافتهم الذي جعل منهم أضحوكة للناظرين وعبرة للمقلدين.

أما صور المتاجرة بالدين ، فهي كالتالي:

1- تحريف النصوص ، وتوجيه الاستدلالات لمقاصد معينة.
2- لبس لحق بالباطل، وممارسة التدليس العلمي، والغش الفقهي.
3- تمييع المواقف الصلبة في الإسلام، بحجة يسر الدين وسماحة الشريعة.
4- اجتزاء نصف الحقيقة، وإهمال الشمولية في النظر والتقرير على طريقة (فويل للمصلين) دون قراءة ما بعدها..

[7] اضطراب العامة:

إنَّ من غوائل إهمال أهل العلم لما يتوجب عليهم، لا سيما عند نزول المحن، وحصول الكروب والشدائد، أن يعتري عامة المسلمين حيرة غائمة، واضطراب ظاهر، يشوش عليهم دينهم، ويقدح في استقامتهم وخيريتهم.

وكل ذلك بسبب غياب الشيخ، وانخناس المحدث والفقيه الذي له فضله وحضوره.

فلا ارتياب أن سكوت العالم عن قول الحق والمناصحة وإفادة الناس مسبب لاضطراب العوام، ويشككهم في

علمائهم، وغربتهم في دينهم، وهوانهم في حمل شريعة ربهم.

لأن ذا العلم الراسخ لكلمته الأثر البالغ، ولتوجيهه العاقبة الحسنة في الإصلاح والتصحيح والتثبيت، فهو سكت سكوتا في غير محله، لم يضر نفسه، بل تسبب في أذية آخرين، وانطماس رؤيتهم، وعدم تفهمهم سواء في قضايا شرعية، أو مستجدات حياتية، والله المستعان.

وقد كان العامة زمن فتنه الخلق القرآن ينظرون ما تقول الأئمة الممتحنون، فيقلدونهم، ولما ثبت الإمام أحمد رحمة الله ذهب ذلك، حيث ضبط دينهم ، وصان عقيدتهم، وحماهم من كل اضطراب وتشويش.

[8] استئساد العلمانيين والمستغربين:

إنهم من الباطل المنتشر، ومن التسامي الدنيوي لبعض المتنفذين، ولكن بعضهم يتخذها ذريعة للاستئساد والاستنسار، ليصوغ برنامج الأمة وهويتها، ويقصي خيارها ونبلاءها، بل يحاربهم ويضيق عليهم.!

إن من أهم ما يزعج العلمانيين وأذنا بهم هو **(الدور الريادي للعلماء والدعاة)** الذي من خلاله يجسِّدون وحدة الأمة، وينشرون قيمها، ويصونون ثوابتها وتعاليمها.

وأما من يضيق بالدين أو يعتبره لا يصلح للحياة العامة، فلا محل له ولا قيمة في الحياة الإسلامية بل مصيره النبد والإبعاد، بعد المناصلحة والتذكير بسوء مسلكه وخروجه عن النطاق الإسلامي.

إنه ليؤلمنا أن هؤلاء لم يأتوا ببرنامج جديد، ولم يقدموا خطة مثلى لرد كرامة الأمة عربيا، بل غاية ما عندهم أن يلملموا فتات موروث الغرب، ليترفعوا به على أبناء أمتهم، ويتبجحوا بالحل المدني، والتقدمي للأمة، فما أفلحوا ولا أنجحوا ، ولم يصيبوا خيراً، أو يحدثوا أثرا نافعا.؟!!

كل ذلك كان من عواقب هجرة أهل العلم للمواقع الريادية، وتركهم وسائل التأثير لهؤلاء العلمانيين والليبراليين وهم في الحقيقة (الاستئصاليون الجدد).

لقد كان فضلاء الأمة في السابق، يرددون حرمانهم من المواقع الإعلامية، بسبب سيطرة هؤلاء في دولهم على كل ما هو إعلامي وبارز، وأما الآن ومع الثورة المعلوماتية والفضائية، صار من الممكن الواسع، استفادة المشيخة وتغلغلهم في هذه الوسائل وقد حققت نتائج باهرة لبعض العاملين في الحقل

الإسلامي، خلال الثلاث السنوات الأخيرة، كما اعترف بذلك كبير أعداء الأمة قبل مدة، وأن دولته الضخمة، عجزت عن هزيمة المجاهدين إعلامياً، فيا للعجب!!

ثم إن لعنة العراق داستة ، وكسرت مفاصله، وأضحى يجرر أذيال الهزيمة، معترفاً بإخفاقه، ومستقيلاً من منصبه.

إن اتساع وسائل الدعوة المعاصرة، تفتح لعلمائنا ودعاتنا مفاتيح للمشاركة والإفادة والتأثير، وأن نغالب أعداءنا من المشركين وأذنابهم من العلمانيين والمستغربين الذين زُرعوا لمقاصد معينة، ووضعوا لمآرب خاصة إذا انتهوا منها انتهى دورهم، ويتم طردهم والاستغناء عنهم كما حصل في جهات مختلفة. كما قيل: فإذا هم ولوا وفضى حاجته منهم وغشاهم فضول# عنهم استغنى كما استغنى عن النعل البخيل..!!

[9] تأخر النصر ومقومات التمكين:

لأن الله تعالى قضى وقدر، أن هذا الدين يقوم به حملته، ويرفعه أنصاره، ويدفعون به في خضم الحياة، يقاتلون عليه، ويصبرون لأجله، ويضحون محبةً له واذا ما تقاعسوا جاء الله بقوم آخرين يحبهم ويحبونه، لا يأتي بملائكة، ولا بأجناس غريبة،! بل أناس من بني آدم، يحملونه حق حملانه، ويبلغونه بلا تراخ أو هوادة كما قال تعالى: " **وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ" [محمد38]**

وقال : " **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ**" [المائدة 54]

وحينما تقصر الأمة في عملها، ويكون فضلاؤها من أبرز المقصرين، خليق حينئذ أن يحتد البلاء، ويستبطيء النصر، بسبب الغفلة الإهمال، لأن الله يقول: " **خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ" [الأعراف 171].**

ويقول : " **إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ" [محمد7]**

ويقول : " **وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ" [الأنفال 60]**

وحملة العلم الشرعي، أولى الناس بمثل هذه التوجيهات، وتطبيقها على أرض الواقع، بغير تكاسل وإهمال.

لقد حدثنا التاريخ عن علماء، وأعلام، كان لهم الفضل الأكبر بعد الله في إعداد الأمة وتربيتها كأمثال شيخ

الإسلام ابن تيمية، وموقفه من هجمة التتار ومشاركته في موقعة شقحب سنة 708هـ.
وما صنعه قبل العز بن عبد السلام، والمنذر بن سعيد في الأندلس، وأخيرا الشيخ عز الدين القسام في مواجهة اليهود وابن باديس في الجزائر وغيرهم من العلماء الغُيُر العاملين، رحم الله الجميع.

[10] ظهور الفتن:

إذا كان كلام بعض أهل العلم أحيانا فتنة كما يزعمه ماسخو الفكر الإسلامي، فإن سكوتهم غالبا إيذان بفتنة، وباب شر وغائلةُ.
قال تعالى: " **إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنْ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمْ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمْ اللاَّعِنُونَ (159) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**" [البقرة 159، 160]

ومن صور الفتن الناجمة عن سكوت بعضهم:

- اغترار الجهلة بالمطروح.
- فشو الظلم والتجاوزات.
- ضعف العقائد وتفكك المبادئ الحقة.
- حصول التلبيس والمخادعة.
- انتفاش المنافقين والمتاجرين بالشريعة.
- افتراق الأمة وحصول البلايا والنزاعات.

[11] التشبه بعلماء اليهود:

في الموروث السلفي يقول سفيان بن عُيينة رحمه الله:
(من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبادنا كان فيه شبه من النصارى).

فاليهود علماء سوء، عرفوا الحق وما عملوا به، والنصارى عباد ضلالة بغير علم.
فالعالم البصير بحكم الله ورسوله، عندما يفر من الأضواء، ويدع الساحة لجهلة المرتزقة أو الإعلاميين، لا ريب أنه شابه اليهود، الذين يستعيذ كل مسلم، في كل ركعة من صراطهم ومسلكهم!!
" **غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ**" [الفاتحة 7]

فهؤلاء لعنهم الله وغضب عليهم، بسبب صمتهم المبين وخيانتهم المكشوفة، حيث علموا البينات فلم يبلغوها، وعرفوا الحقائق ولم ينشروها.
قال تعالى : " **لَوْلا يَنْهَاهُمْ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمْ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمْ السُّحْتَ" [المائدة 63].**

يروي عن بعض السلف كابن عباس والضحاك قولهم **(ما في القرآن آية أشد توبيخا للعلماء من هذه الآية، ولا أخوف عليهم منها).**

والذي يشابه اليهود في كتمان الحق، سينجرف إلى تحريفه، ومن ثم الاشتراء به ثمنا قليلا، والإفتاء بغير حق، لأن الفتن غرارة، والنفوس ضعيفة ولا يثبت الأمة إلا الله، وقانا إليه وإياكم الفتن ما ظهر منها وما بطن.

وفي صحيح مسلم قال صلى الله عليه وسلم: **(تعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن)**.

وقد اصبحنا في عصر تشتري فيه الذمم، وتُغرى النخب العلمية بالأموال الباهظة، والقصور المنيفة ليبيعوا ذمتهم، ويتاجروا بعلمهم.

قال صلى الله عليه وسلم كما في حديث الترمذي **(لكل أمة فتنة، وفتنة أمتي المال)**.

وإذا فُتحت الدنيا على العالم، وغرّه بريق المال، ووميضه فقل عليه السلام، واعلم أنه باع علمه، بثمن رخيص دراهم معدودة، وكان فيه من الزاهدين، وهو ممن قال الله فيهم: " **فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا "** [الأعراف:169].

وهؤلاء طائفة من أهل الكتاب أيضاً، وهى شاملة لكل عالم وعارف، بان له الحق، ثم تاجربه لنيل مركب عالٍ أو مالٍ بهيج، أو حظوة عند مسئول ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وقد قال سبحانه:" **مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ"** [النحل:96]، ما يجمعه المرء فى ديناه سيزول ويفنى، وربما حرم لذته، بسبب آفة أصابها، وأما ما يقدمه بصبره، بلاغة لدين الله فسيجده موفوراً عند الله في جنات النعيم.

[12] الانشغال بزهرة الدنيا: وهي تنيجة حتمية لكل ساكت عن الحق، راضٍ بالهوان، أن تأتيه الدنيا حلوة خضرة، لتحرك مكامنه، وتهز وجدانه، وتدعوه إلى زهراتها ومفاتنها، حيث لم ينشغل بالجاد المفيد، فأورث البلاء المهين الذي ينسيه علمه، ويكدر إيمانه، ويزلزل خيره وصلاحه، وعلى نفسها جنت براقش !

ومن مستحسنات كلام الشافعى المتوارث : (**ونفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل**).

لأن المقصر في البلاغ والمناصحة، سيتسع عنده الزمان وسيشعر بالفراغ حتماً، فتأتيه نفسه لتزين له، وربما أزّه رفقاء السوء، ليدفعوه إلى ما فيه ضره وغلبته! وحينها يحاصر حصاراً قل أن ينجو منه ناجٍ ، أو يسلم منه عابد.

قال تعالى : " **وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى** " [مريم:131] **،** وفي الحديث المشهو

قال عليه الصلاة والسلام : **(حُفَّت النار بالشهوات، وحُفَّت الجنة بالمكاره)**.

ومن آثار انغماس العلماء في الدنيا، وعدم تأديتهم ما أوجب الله عليهم:

1. فساد الدين، وظهور من يتلاعب به من المنافقين والجهال.
2. غياب القدوات الحية ، والشخصيات التي تهدي بسمتها أو حسن سلوكها.
3. كثرة الفتن والشرور، وازدهار سوق الدنيا وقلة التفكير في الآخرة .
4. ضعف الأثر العلمي على حياة الناس وشعورهم بالإفلاس، حيث لا معلم مفيد، ولا مربٍ مجيد، والله المستعان.

[13] انعزال الناصح الصدوق: حيث يسري إليه الشعور بالوحدة والإحباط، وأنه ليس معه أحد، وقد يغرّه سكون فلان وعلان، ويحدث نفسه منه بالخطأ، والتجاوز لا سيما وأن الكثرة تجتاح الواجد ، وتغالب موقفه.

وهو كذلك لا يأمن الدوائر، وربما فكر في رزقه، ومستقبل أهله وأبنائه، فينصرف إلى مسلك الانعزال، ويتشبع بخلق الحكمة الفارغة، والمصلحة المجتثة من سياقها الصحيح! فيبيت وليس له من يناصره أو يدفع عنه ، أو يتحزب معه ويرى من هو أفضل منه ، قد وضع عصاه، وتحلل من ربقة المسئولية.

ولتفاوت العلماء فى علومهم ويقينهم وأورادهم ، تختلف مواقفهم ! لأن كلاً منهم يتحرك حسب إيمانه وعلمه وثقافته، ولكن السلامة مطية الأكثرية، والراحة منية الأغلبية، والدعوة إلى الله طريق شاق، ومسلك صعب، قل من صمد فيه، وصبر على بلوائه ولأوائه ولذا وجب على أهل العلم التقارب والتواصل. وعقد الصلات العلمية والفكرية، التى تحمي جانبهم ، وتظهر هيبتهم، وتحمي ضعفهم، ولا تحبط جريئهم، الذي يستحلي قول الحق ولو كان مراً ، والصدع بالمأمور ، والبلاغ دون وجل أو خشية، ويتأفف من السكون والكتمان، لأنه المرتع الوضيع والمزلق الأثيم ، والله المستعان ...

أما ترى قول قوم شعيب لنبيهم " **وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ "** [هود:91]**،** ولكنه عزيز برهطه وعشيرته، فكيف لو تجمع أهل العلم تجمعاً دورياً ، وتعاقدوا على النصرة والحماية، التي تحول دول بخسهم حقوقهم، أو أذيتهم أو ابتزاز بعضهم ! للانت لهم الصعاب، وانتصروا على كل ظالم لم وغاصب.

ولذا إنما ينعزل الناصح الفاضل بسبب ارتخاء إخوانه من أبناء المهنة ، وشعروه بالوحدة القاتلة، وأنه من تسبب في الفرقة، والمنازعة وشتات العامة .. وهذا ليس بصحيح !!

وإنما الصحيح أن يجري العالم العامل على ما هداه الله ، وبلغه من علم ، ولا يحرم نفسه من حسنة وخير وتوفيق، بعد التأمل ليفتح الله، ويفك عنه، ما استغلق من الإفهام والإشكالات.

وقد كان من دعاء نبينا صلى الله عليه وسلم كما في صحيح مسلم فى افتتاح قيام الليل (اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ، فاطرَ السموات والأرض، عالمَ الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك

فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختُلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم)

وهذا في غاية الأهمية، والحاجة إليه ماسة في زماننا الذى يعج بالمعارك الفكرية في الإطار الشرعي، وتكثر التنظيرات المتلونة من المتخصص وغيره بسبب تداخل الأحداث، وتزاحم النوازل في محيط من الضعف الجاثم، والمذلة المستديمة ، والله المستعان.

[14] شيوع ثقافة الهزيمة :

وإنما شاعت بسبب الهوان النخبوي، الذي تراكم عبر قرون من التردي والانحطاط ، وأسعفه سوء فهم للعملية الدعوية، وافتقار العمل الإسلامي إلى تنظيم جاد، وتحالف وثيق، والمسخ الواضح لدور العالم العلمي والتوجيهي والإصلاحي، مع أسباب أخرى ، عكست هذه الهزيمة المطبقة على أرجاء الأمة، التي تجاوزت خاصة المسلمين وفضلاءهم، لتشمل عامتهم ودهماءهم، وينتج عنه ، الشعور بالضعف والمهانة، والعجز عن الإنجاز والابتكار، والتقدم بالأمة حضارياً، وتجاوز الأعداء بالنصر أو الظهور والارتقاء، وهذا ما يسمى (بالهزيمة النفسية) التي كان من جرائها حصول الهزيمة الفكرية، التي دبت في نفوس علماء أخيار، وفقهاء أمهار، ولا أتحدث عن صور الهزيمة الأخرى من عسكرية وسياسية واقتصادية لأنها باتت كالجسور الضخمة على المحافظة الصغيرة ولا حول ولا قوة إلا بالله .

والمهم هنا انتشار صور الهزيمة المختلفة التي رفعها الباري تعالى عن أهل الإيمان ، لما قال : " **وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** [آل عمران:139]، ولما تحدث عن مواطن العزة قال تعالى : " **وَلِلَّهِ العِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ المُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ** " [المنافقون: 8]**،** ولما كشف الأعداء الداخلين من ساسة النفاق ومنتحليه قال : " **أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ العِزَّةَ فَإِنَّ العِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً** " [النساء: 139]، وهذه الهزيمة النفسية من أفتك الأسقام الكائنة في الأمة ولن يزلزلها سوى الإيمان الصادق، والثقة بوعد الله " **وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ المُؤْمِنِينَ** " [الروم:47]، وتوحد أهل العلم، ونبذهم للفرقة والمنازعة " **وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ** " [الأنفال:46]، والعمل المنظم الجاد وأداؤهم لرسالتهم بكل صدق وجد . كما قال تعالى: " **خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ** " [البقرة:63]، ونقل مآثر الأجداد عبر حشد القرآن المتين عن النصر والتمكين ، والاستفادة من دروس الواقع المعاصر التي تنير من فترة لأخرى، فى عالم من الظلمة والظلم والالتباس، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

إن أول شرط فيمن يتحدث عن إحياء الأمة وإعادة مجد الإسلام، التحدث بالشمم الإسلامي، ونبذ صفات الذل والاستكانة والرخاوة، التى يغلفها الجهلة بأغلفة الحكمة والمصلحة وسعة

الأفق، وما هى إلا فصل من فصول الهزيمة الجاثمة من عقود طويلة، والله المستعان.

إن العالم الشرعي يجب عليه أن يظهر السنة وشعائر الله، بكل اعتزاز وافتخار، فى لفظه وسمته، وشكله وانتمائه ولا يخالط المنهزمين، أو المنبطحين الذليلين، الذين تكثر صورهم البالية في الفضائيات العارية ، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

يجب على معلمي العلم، وناشري السنة، أن يكون في برامجهم العلمية والدعوية دروس عزة العالم وقوة شخصيته التى لا تسمح له بالتهاون الشرعي أو التسامح العلمي البارد، وبيع المعلومات بثمن بخس، وعرض زائل!

أأشقى به غرساً وأجنيه ذلةً   إذن فاتباع الجهل قد كان أحزما

[15] تحطيم جهود العاملين:

حيث يحرم كثيرون من الدعم العلمي، والتأييد والإدارة والإشراف، مما يعني انصراف الناس عنه ، وتقلص الوضع المادي لديهم، فتضعف مناشطهم وتنكسر جهودهم، ويصابون باليأس والخمول ، لانعدام وجاهتهم واستيثاق الناس منهم، والتى نكتسب من خلال العلماء، والأعلام ذوي التأثير والمكانة .

والمشكلة تعظم هنا أن أكثر أهل العلم شغله الأكبر، دروسه المحدودة، وتوجيهاته القاصرة، التى ينعزل لها عن المشاريع الخيرية، والجمعيات الفاعلة والمؤسسات الدعوية، التي هى في أمس الحاجة إلى دعمه ونصحه وحمايته، حتى لا يتلاعب بها أو تستنقص، اوُتضار!!

إن جهد العالم الفردي لا يساوي (عملاً مؤسسياً) يجمع الأكفاء ، والطاقات ويحتفي، بالقدرات، ويُعرف بالإنجاز والمنافسة .

إن العمل الإسلامى اليوم إنما يشع وينتشر عبر أياد مجتمعة، وأموال مكتنزة، وعقول متقاربة ، تعمل وتنجز أضعفاف ما ينجزه الفرد الخرافي جداً وعملاً وبذلاً .. ولكن متى نتنبه.؟!!

إن مثل هذا العالم المعقد، والمنفتح، خليق أن يرشدنا إلى تحويل جهودنا وإمكاناتنا إلى منظومات مترابطة، ومؤسسات متجانسة، تحقق القفزات، وتدفع بالأمة إلى الدرجات وتحدث فيها التقدمات الحافلة، والاختراقات الجاذبة .

وليس مجرد التجمع الفارغ، أو المؤسسة الخاوية !!

إن كثيراً من المؤسسات الخيرية الآن تعمل وتجد بفضل وقفة عالم، او تزكية فقيه، أو إشراف داعية، نذر نفسه لها بعد توثقه منها، ودرايته ببرنامجها، وإدراكه لكفاءة عامليها، إذ الكفاءة شرط النجاح، ومؤشر الإنجاز والتقدم، وعمادها القوة والأمانة **(إن خير من استأجرت القوي الأمين) [القصص: 26].**

[16] ضعف التواصل بين العلماء:

إن من يبخل بعلمه على أمته فى فتوى صادقة، أو موعظة مؤثرة أو بيان كاشف، جدير أن يبخل بوصاله لإخوانه العلماء الآخرين، إذ كيف يجود بزيارة ومؤانسة وهو من شح بالحديث والفتوى ، ليرضى نفسه أو أطرافاً أخرى ، نهجها التباعد والانفكاك والانقسام (**وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية**)

والاتحاد قوة بكل معاني القوة، فكراً وعلماً وجسماً وروحاً وتضامناً، ولن يكسرها معتد أو متعال، قال تعالى: " **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا** "[آل عمران:103]، ولتأكيد أهمية التعاون ، الذي هو من أثر التواصل والتجانس قال تعالى: " **وَتَعَاوَنُوا عَلَى البِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ "[المائدة:2]**، والتواصل والمؤانسة والاجتماع والاتحاد كلٌ من معاني البر والتقوى، التي أهملت كثيراً ، وما جرى مؤخراً من إنشاء اتحادات، وهيئات، تضم صفوة العلماء والمفكرين الإسلاميين، لهي خطوة بناءة، وفكرة راجحة ، أدركت ما لهذه الجمعيات من آثار وبركات في صد أي هجوم داخلي على قضايا الإسلام، أو آية محاولة للتسلط على الأمة ، وابتزازها سياسياً، وفكرياً، وشرعياً.

ورغم ما قد يلاحظ على برامج بعضها، إلا أنها دفعة إلى الأمام لتحسين الدور العلمي المنوط بالمشيخة الشرعيين ، وإيقادهم أممياً تجاه قضايا دينهم وإشعال الغيرة فيمن أماتتها الدينا فيه، والله المستعان.

ولا تزال تلك المنظمات فى بداية طورها لتحسين أدائها ومناصحتها، وبإمكانها تبصير الأمة في نواحي السياسة والفكر، والاقتصاد، والإدارة وحل المعضلات، وصناعة المواقف اللازمة من نحو ما جرى مؤخراً فى قضية الرسوم المسيئة، والتطاول المتوالي على قضايا المسلمين، وشعائرهم ومقدساتهم، فضلاً عن قضايا أخرى لا تقل خطورة ، بالإمكان تبيينها وكشف مغازيها وأسرارها.

إن آثار التواصل بين علماء الأمة نافع، ومفيد، وهو نوع من معالجة ضعف العالم ، الذي تفرضه عليه أكثر الجهات الحالية . ومن تلك الآثار المهمة :

1.توحيد مواقف العلماء وسد خلل فرقتهم وتباعدهم.

2.تسجيل مواقف مشتركة ، تحمد غالباً إذا تجردت وتباعدت من الضغوطات والإغراءات.
3.تثبيت قلوب بعضهم، أو من يخشى عليه الانهزام، أو الاستضعاف ، فيشعر بقوته وشجاعته بين إخوانه أصدقاء المهنة .
4.سرعة المعالجة والتغطية، لكل ما يلم بالأمة، واستصدار التعليق المناسب، قبل فشو الخلاف، وحصول النزاع، أو التشرذم!!
5.تحقيق المناصحة والحوارات الجادة، وانتفاع كل عالم من مذاكرة أخيه وعقله واستدلالاته.
6.تعزيز جانبهم، واشعال هيبتهم، التى تزلزل من حين لآخر، لإسقاطهم، أو عزلهم عن أمتهم، وتكون القيادة لغيرهم من المرتزقة والجهلاء والدخلاء.

[17] تسلط الأعداء البعداء:

والعلماء الشرعيون هم أمام عدوين لدودين ، الأول قريب من المنتفذين الذين يرون أن في بروز العلماء، سلباً لحظوتهم الدنيوية، ومتعهم الشهوانية! عندما ترفرف كلمة العالم، ويسمو المنهج الحق الذي ينادي بالإيمان، والصفاء، والطهارة مما لا يحبه أرباب الباطل والتيه والغفله " **إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ** " [الأعراف:82]!!

وآخر بعيد يزعجه وجود العالم الغيور ، والرباني النابض، الذي يجيش الجماهير ضدهم ويحرك مشاعرهم، ويسخر عزائمهم للتصدى والدفع والمراغمة.

وقد رأينا ما للفتاوى الصادعة من أثر مخيف على (**التحالف الصهيوصليبي**) في مناطق الصراع، وأوصوا فيه من يصدرها، بتهمة التحريض علىالعنف، وما يسمى بالحرب على الإرهاب !! التى كشفت حقدهم ، وأبانت زيف إدعاءاتهم وسقوط حضارتهم وقيمهم ، فالحمد لله الذي فضحهم للمغرورين بهم ، قبل الفضيحة الكبرى، المؤذنة بانطماسهم في القريب العاجل وما ذلك على الله بعزيز. " **كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ** " [المجادلة:21].

إن العدو الخارجى إذا دهم أراضى المسلمين ، لا يخيفه أرباب الثقافة ، ومن ارتمى في أحضانه! وإنما يخيفه يقظة الإسلام ووثبته الحديثة التى يحركها العلماء الراسخون، والدعاة الباذلون، الذين بانتباههم يعز الإسلام، وبجهادهم يحيا المؤمنون، ويكونون عليهم ضدا ! كالبنيان المرصوص الذي يكسر جمعهم، ويفل حديدهم، ويزيل غطرستهم، فهو يدرك أن المد الإسلامي هو من سيقوضه، ويصيره خاسراً ذليلاً ، ويدرك أن هذا المد له دعائم أساسية! وأول دعامة وأهمها، هم العلماء والفقهاء، المبلغون عن الله ، الذين يمنحهم الله من الإيمان العميق، وثبات القلب، وقوة البصيرة ، والشجاعة النادرة ، ما يجعلهم على مستوى القيادة والإدارة وهذا ما يكرهه العدو.

لذا فهو يحرص على استعمال أذنابه في إضعاف كلمة الحق، وخرس العلماء الصادعين، وتمييع المنطقة الإسلامية بثقافة الجنس والترف والانحلال ليذيب فيهم معاني الإسلام، والقوة، والبأس والانتقام كما قال تعالى : " **وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً** " [النساء:27].

ومن هم الآن الذين يتبعون الشهوات، ومن يصدرها لمناطق الإسلام؟! إنه الغرب الكافر ومن حذا حذوه من العلمانيين المتنفذين ، وأفراخهم وأزلامهم، وهذا من أسمى أهدافهم، ومن عوامل نجاحهم للسيطرة والهيمنة وتسويق مشاريعهم ، كفانا الله شرهم ، وجعل عاقبة أمرهم خسراً .

لم يعد سراً رصد الصليبيين للمساجد مناشط الجهات الخيرية، والعلماء المؤثرين، ومن يوجه الناس ، ويصنع فيهم القدرة على العمل، والدفع والتحرك وقد أشيع قبل أقل من سنتين تقريباً ، ما صنعته بعض دول المنطقة من إعطاء قائمة للسفارة الأمريكية في بلدها ، بأسماء أئمة المساجد والخطباء المؤثرين والرافضين لسياساتها، مما أدى إلى اجتماع أولئك الأئمة ولكن دون جدوى، وأذاعت كل ذلك بعض القنوات الفضائية المشهورة.

وما هذا إلا مثال واحد لعملية الرصد والمتابعة، والخشية الدائمة من التيار الإسلامي وقادته وموجهيه. قال تعالى: " **وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الجِبَالُ** " [إبراهيم:46].

[18] هوان التفاعل مع قضايا الأمة:

إن من مقاصد الخصوم والأعداء ، تفكيك المسلمين ، وعزل كل قطر عن الآخر ، فإذا بات العالم قطرياً ، ومحدوداً فى مسلك توجيهي مهين، سينطلق من خلاله إلى دائرةالصمت والاستكانة ! ولن يكون مهيأ بعد ذلك للتفاعل مع قضايا الأمة، لأنه قصر فيما دونها ، بل سيراها كالعتمة الدامسة، والخطوط الحمر، والتدخل في شئون الآخرين !!

كما يتبجح بذلك بعض مختلي العقول، ومطموسي البصائر، الذين يدللون على غفلتهم وهشاشة علمهم ومسخهم لمعانى عالمية الإسلام وشيوعه ووحدته واجتماعه !!

وعندما نقول التفاعل لا نعني المجابهة والمصادمة غير المحسوبة ، بل نقصد أسهل معاني التفاعل. كالتشجيع والتعاطف ، والموآزرة والدعم ومشاركتهم أحزانهم وهمومهم ، وعدم خذلانهم ، حتى لا يصابوا بالهزيمة، أو يتملكهم الإحباط، وإن لم نقم بذلك أصابنا ما أصابهم، إذ يقول تعالى : "**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**"**[الحجرات:**10]، وقال تعالى: " **فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً** " [آل عمران:103]، وقال صلى الله عليه وسلم : (**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر**) أخرجاه في الصحيحين. .

[19] تقويض سلطان العلماء :

لا يمكن لأحد تجاهل قوة أثر العلماء والسلطان الذي يهبه العلم لهم، إذا صدقوا وأخلصوا، وهي الرفعة المرادة بقوله تعالى: " **يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ** " [المجادلة:11].

حتى قال القائل:

إن الملوك ليحكمون على الورى وعلى الملوك ليحكم العلماءُ

وهذا السلطان هو الذي يمنحهم محبة الناس وإجلالهم وهيبتهم، واقتفاء آثارهم، حيث تطاع أوامرهم، وتجتنب مناهيهم، وتعتبر نصائحهم.

كما قيل:

إلى علم تكون به إماماً مطاعاً إن نهيت وإن أمرتا

وهذا السلطان الكبير دعائمه:

1. اليقين الصادق الذي يقوي القلب، ويثبت المبادئ.
2. العلم الجم، الذي يستوعب معارف الآخرين، ويلتهم شبهات المخالفين والمثبطين، ويحسن إدارة الدعوة والأحوال والمشكلات.
3. الإخلاص المشع بمحبة الله، ونصرة دينه، وهضم حق النفس ، وازدرائها في ذات الله تعالى " **قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ** " [ص:86]، ولسان حاله صادع بقول:

خذوا كل دنياكم واتركوا فوآدي حراً طليقاً حبيبا

فإنى أعظمكم دولةً وإن خلتمونى وحيداً سليبا

وهذا الإخلاص، يحمله على مجافاة الدنيا وأهلها ومفاتنها، ليصدق توجهه ويحبه الناس انطلاقاً من قوله تعالى : " **وَلاَ تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ** " [هود:113]،.

وإنما يعز بعلمه ! ويركن إليه الناس لخدمتهم وإفادتهم وقضاء حوائجهم ، لتكتمل له الرئاسة المنتظرة، ويبلغ السلطان المنشود.

وكل ذلك يتم للعالم الرباني بعلمه وصدقه وشجاعته، وليس بجنده وحرسه وأسواطه!!

يقول بعض أصحاب إبراهيم النخعي (**إن كنا لنهاب إبراهيم النخعي أشد من هيبتنا الأمير**) !

وكان من صفات مالك بن أنس رحمه الله الهيبة وفيه **قال سعيد بن أبي مريم: "ما رأيت أشد هيبة من مالك، لقد كانت هيبته أشد من هيبة السلطان". وقال الشافعي: "ما هبت أحدًا قَطُّ هيبتي مالك بن أنس حين نظرت إليه".**

وقال محمد بن عبدالوهاب الفراء: (كنا نهاب أبا نعيم أشد من هيبة الأمير)(تاريخ الإسلام)1/1653 والمراد ابو نعيم شيخ البخاري، واسمه الفضل بن دكين رحمه الله.

وهذه الهيبة الموهوبة من الله الوهاب ، هى التي تنشر الحق ، وتجمّع الناس، وتؤثر فيهم وتصد بهم الباطل ، وتقمع المتجبر وترهب الطاغي ، وتجعل للعالم مكانة في الناس، من خلالها يشيد، ويؤسس أجيال المستقبل ، ولكن هذا بشرط علائه وزهده في الدنيا.

إذا ما علا المرء رام العلا ويقنع بالدون من كان دونا

(والعالم الدوني) هو من يمسخ علمه، ويتجاهل مسئوليته، ويغتر بالدنيا، ويشخص إليها ببصره، وقلبه ويديه وقدميه ، حتى تسقط مكانته، وتنطمس هيبته، ويقوض سلطانه ، فلا يكون له رأي ولا قول ولا تأثير.. وكم رأينا من هؤلاء أصنافاً وألواناً، أهانوا العلم ، فأهانهم الله ، وذاقوا به مرارات التزلف والتطبيل والاستجداء**(ومن يهن الله فما له من مكرم)** والجزاء من جنس العمل.

وهذا الصنف من العلماء هو من يحرص الأعداء والمنافقون على إبرازه وإنتاجه ليتمسحوا به ويمرروا رزاياهم وبلاياهم بالدين، والناشرة للفساد، المغلف بأغلفة التقدم والازدهار والحريات والانفتاح زعموا !!

وصفوة القول هنا: أن انخفاض دور العالم ، وشح دور آخرين يقلل من شأنهم ويذهب بعلمهم وذواتهم ، الذي هو إضعاف للشريعة، جريرة السكوت المطبق، والاستكانة السقيمة . ويفُترض فى العالم الشرعي لبس لأمة المجاهد الذي يذب عن دينه، ويثبت دعائمه ويخرص الباطل، ويربي الناس بلا تردد أو كلل ويحمل من معانى الجهاد الأول: " **فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ**

الصَّابِرِينَ "[آل عمران:146]، فكان المجاهد يبور وينهزم إذا سكن وذل ، كذلك العالم والفقيه ينهزم ويضعف، ويذهب سلطانه إذا استكان وذل، ورضى بالدنية والدون.

ولما تخلى أهل العلم في بعض الأقطار عن أدوارهم، وتقاعست نصيحتهم، جاءهم من البلاء الطافح ما جعلهم يندمون على تلك الأيام ، ويؤيدون فيها من أبان وذكر ونصح....

رُبَّ يومٍ بكيت فيه فلما صرتُ في غيره بكيتُ عليهِ

والعربُ تقول(يداك أوكتا وفوك نفخ) ! من هيأ مناخ الاستضعاف والاستكانة، هو الذي بث فيها معاني الهدوء والحكمة وطول النفس والأمل البعيد، التى وضعت في غير مواضعها، وفرغت من مضمونها الشرعى، وفُصل عدد منها تحت سياقها، حتى استفحل الشر، وعم البلاء حتى بكينا على الأيام الخالية، وما يوم حليمة بسر!

نصح الناصحون ، وذكر المذكرون، فعوتبوا من جماعات الحكمة والهدوء والصبر المديد ، حتى وصلنا إلى ما وصلنا إليه " **فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ** "[غافر: 44]. فانتهى بالصادقين منهم بالبكاء على الأطلال، وتلقف فتات الموائد، وضياع الجهود، ووأد المواهب والطاقات ، والله المستعان .

[20] توسيع المفاهيم المغلوطة:

إن من يبرهن على موقفه أو فتواه أو تعليقه، يكون ذا مصداقية عند الجماهير، إذا صح دليله، واستقام استدلاله واستنباطه، واستطاع إيصاله إلى الناس، ليرفعوا عنه الملام، ويصونوا عرضه وعلمه! وأما من دون ذلك ، فإنهم يحتملون ما يأتيهم من ألسنة النقاد، وكلمات المعاتبين، ولأنه جرت العادة أن يسوغ العالم والشيخ سبب تخلفه أو تقهقره أو استكانته ، أو يختبئ عن الناس ، ويلزم بيته ، وهذا الخيار الثاني عزيز الآن مع جودته لتلك النفوس والغالب اللجوء للأول، وظهوره بمعاذير ثلاثه، استعملت واتسعت ، حتى خرجت عن حدودها ، وتكاثرت أغلاطها وهى:-

1- الحكمة .
2- المصلحة.
3- درء الفتنة.

والحكمة تعريفها الدقيق (وضع الشئ في موضعه اللائق به) لكنهم يختارون وضعاً واحداً هزيلا، راضين به بكل حال، ومتكيفاً مع كل سوء.ومجردا من الأدلة والشواهد.

وأنماط المصلحة، غالباً ما تستعمل في إطار درء المفاسد مقدم على جلب المصالح وتطرد هذه القاعدة في كل الأحوال حتى إنه ليتوقع من كل عمل شرعي، أو إصلاحي أنه سبب لحصول مفسدة بسبب نكران الناس، فيطلب تأخيره بمرة وفي كل الأزمنة والأحوال.

أما درء الفتنة فهي شماعة كل زمان، وسلطان كل باغ، و لم تزل مستعملة من العصور القديمة، وقد كان يهدد بها الصادعون بالحق ، وأنكم مثيرو فتن، وأصحاب قلاقل ! وما هي تلك الفتن ؟! إنها لا تعدو سوى اختيارات علمية جريئة أو إصلاحات اجتماعية سديدة، أو توجيهات فكرية عميقة، لم تؤلف من قبل أو يخشى من ورائها تغير ونكران!!!

بل إنه وقعت الفتنة لما طال السكوت، وتعاظم التأخير، وعزل العلماء !!.

ويعمد بعض الفضلاء إلى تثبيط العلماء، وزجر المصلحين مدداً طويلة، ولا إصلاح يتم ، ولا حال يتغير ، والله المستعان.

هذا ما ظهر للعبد الفقير من آثار للاستكانة العلمية غير السديدة، والتي ربما تجرعت الأمة مرارتها، وذاقت أنكادها، والمقام يتطلب البسط، ولكن هذا ما

تيسر تقييده الآن، راجيا العودة إليه يوما من الدهر، والله المعين وهو نعم المولى ونعم النصير.
اللهم وفق علماءنا لما تحب وترضى ،وجدد بهم دينك، وأعل بهم كلمتك، إنك على كل شئ قدير.